يتأسف على موته (+١٥٢٤) : « لا ترثِ لحالي لاني اموت بفعل البرّ ولكن ارثِ لحالك اذ حنثتَ بعهودك وخنت وطنك ومَلِكك»

قال ڤولتير (+١٧٧٨) الكاتب الشهير والكافر العظيم (نقلًا عن رواية طبيبه): « اني اموت مهمَلًا من الله والناس »

لما سيقت المأثم رولان الى الموت (+١٧٩٣) قالت صارخة . « أيتها الحرّية كم من اثم يقترفهُ البشر باسمكِ »

لما ضرب احد اعداء الهيئة الاجتماعيَّة غرسيا مورينو رئيس جمهوريَّة خط الاستواء بمدية صرخ قبل موته (+١٨٧٥) : « انَّ الله لا يموت »

وكانت الكلمة الاخيرة التي فاه بها البابا لاون الثالث عشر قبل وفاتهِ السعيدة (+١٩٠٣) : « قد اتممتُ المهمَّة التي عهدها الله اليّ »

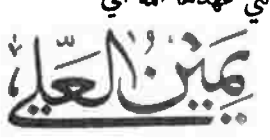

رواية تاريخية للاب س . ت اليسوعيّ

الفصل الحادي عشر

خاتمة عالم (تابع)

فبعد ان استولى الرومان على قلعة انطونيا اخذوا يستعدُّون لمحاربة الملجإ الاخير الذي بقي لليهود في اورشليم ألَا وهو هيكلهم الفخيم المعدود من احدى آيات العالم السبعــة

فوجَّهوا همَّتهم الى سطوح الهيكل ليدمّروها تدميرًا الواحد بعد الآخر . فعادوا الى ابتناء مصاطب تمكّنهم من نصب المجانيق عليها . وبعد ايَّام قليلة اصطنعوا منها ثلاثًا على ثلاث جهات من المدينة غربيّها ثم شمالها ثمَّ على الزاوية الجامعة بين هذين الجانبين فركّبوا عليها ادوات الحصار من كبوش ودبَّابات ومجانيق كانت تنطح الاسوار وتقذف بالحجارة على من يحاول المدافعة عنها او لم يتَّق بنفسهِ من شرّها

وكانت المجاعة في مطاوي ذلك تعمل عملها فتنهك قواهم وتقتلهم أذرع قتل . وفي ١٢ تموز لم يَعُد الكهنة يجدون الذبائح المسنونة بالشريعة فبطلت الذبيحة الدائمة التي لم تبطل منذ عهــد سليمان الَّا في ايَّام جلاء اليهود الى بابل وفي ايَّام انطيوخس

المغتصب. فتمّت نبوءة دانيال حيث قال: (٩: ٢٥)« انَّ بعد قَتْل المسيح الرئيس تبطل الذبيحة والتقدمة وفي جناح الهيكل تقوم رجاسة الخراب »

وكان طيطس كلّما ينظر الى هذا الهيكل البديع ذي الجمال الفريد يتأسّف على خرابهِ و يسعى بان يصونهُ من الدمار. فارسل يوسيفوس اليهودي كسفير الى حنّا الجثّي يهدي لهُ الامان و يخلّص الباقين من بني يهوذا الّا انَّ هذا لم يُنصت الى قولهِ واكتفى بان يردّد عليهِ هذه الكلمات: « اورشليم مدينةُ العليّ فلن يقوى عليها عدوٌّ». كأنهُ نسي ما تنبّأ بهِ اشعيا على المدينة المقدّسة اذ قال(١: ٦و٧): « لا تعودوا تأتوني بتقدمة باطلة. انّما بخوركم رجسٌ اليّ . . . فحين تبسطون ايديكم احجب عينيّ عنكم وان اكثرتم من الصلاة لا استمع لكم لانَّ ايديكم مملوءة من الدماء »

أَجَلْ انَّ ايدي حنّا من جشّ كانت مصبوغة بدماء اخوتهِ فابتعد عنهُ الله. ولذلك لمّا حاول بعد ايّام ان يطارد الرومان رجع خاسئًا خاسرًا فلم يبقَ لهُ سوى الموت تحت ردم الهيكل. . ما لم يفتح الله لهُ ابواب الرحمة الّا انّها بقيت مغلقةً الى المنتهى. . .

ولمّا كان اليوم١٨من تموز رأى اليهود انّهم لم يعودوا يستطيعون المدافعة عن الاروقة فاحرقوا في مدّة ستّة ايّام الرواق الشمالي والرواق الغربي. وكان بقي رواقٌ واحد بهيّ الجمال ذو نقوش عجيبة فافرغ الرومان كنانة جهدهم ليستولوا عليهِ سالمًا. فهجموا عليهِ كرجل واحد تقودهم مقدّمة طيطس ونخبة عساكرهِ. فما كاد قدمهم ان يستقرّ فيهِ حتى احرقهُ اليهود وسقطت كل اعمدتهِ بضوضاء تذكّر بقيام الساعة. فمات تحت الرواق من ابطال الرومان قومٌ بكى عليهم طيطس لكنّ ساعة الانتقام كانت ازفت وانفتح بموت هؤلاء حرم الهيكل

ثمّ تقدّم الجيش وحاولوا فتح الساحة الثانية وهي ساحة النساء وكانت المجانيق ترسل قطعًا ضخمة من الحجارة على اسوار الهيكل بلا انقطاع فيُسمع لها دويٌّ عظيم في كل الجبال المجاورة. الّا انَّ هذه الاسوار كانت اصلب من الحديد لم يقوَ عليها الّا النار. فبعد ان امتنع طيطس مدّةً عن ذلك ليصون هذا الاثر الجليل سمح اخيرًا لجنودهِ بان يحرقوا هذه الساحة واسوارها بالنار. وبعد ساعات قلائل كنت ترى الاعمدة متداعيةً وسقوفها المبنيّة بخشب الارز مضطرمةً وما عتم باب الفضّة ان ذاب فجرت فضّتهُ في الحرَم. وبقيت النار مدّة اربع وعشرين ساعة تلتهم اعمال سنوات عديدة

وفي اليوم الثالث من آب ازال الجند كلّ الردم واستعدُّوا للقتال الاخير وفتح المقدس الذي كان تحصَّن فيهِ اليهود . وفي صباح اليوم الرابع منهُ اراد هؤلاء ان يُغيروا على الرومان فردَّهم طيطس خاسرين

ثمَّ امر طيطس جندهُ بان يفتحوا الهيكل عنوةً دون حرقهِ . وفيما هم على وشك العمل واذا بجندي على غير علم القائد رمى بنفَّاطة مستعرة من احدى النوافذ فوقعت على حُجرة لاصقة بالهيكل . وبعد برهة من الزمن كنت ترى لسان النار مندلعاً يسطع لهيبها من نوافذ الهيكل فوثب الرومان من كل جانب لينهبوا الهيكل ويسلبوهُ قبل ان يذهب الحريق بكنوزهِ

امَّا طيطس فاستاء من هذا المنظر واراد ان يكفَّ جنودهُ لكن صوتهُ بات ضائعاً في هذه الجلبة العظيمة فاضطرَّ الى ان يبقى ساكتاً واجماً يحرّق الأرَم اذ هو ينظر الى خراب اجمل اثر كان اقامهُ البشر لعبادة اله العالمين . ولذلك ذهبت اوامرهُ ادراج الرياح لمَّا اراد ان يمنع قتل اليهود المحتشدين في المقدس

فكنت ترى نحو ٢٠,٠٠٠ رجلٍ سئمت نفسهم من مشقَّات حصارٍ دام نيّفاً وخمسة اشهر ذاقوا فيهِ انواع البلايا والنكبات فتحاملوا على اعدائهم ليشفوا منهم غليلهم فزحفوا عليهم كالسيل الجارف واخذوا يصطلمونهم بالسيوف ويحشُّونهم بها حشاً فيوردونهم موارد لا صدر لها . وكان اليهود يحاولون الفرار من مناهل الموت فهذا يصرخ وذاك يولول ولات حين مناص . فان الرومان كان يسبحون في دماء القتلى ولا يزيدهم منظر الدم الَّا فظاظةً وغيظاً كالنمر يسكرهُ دم فريستهِ فلا يرعوي حتى لا يبقي ولا يذر

وبعد هذه المذابح البشريَّة وهذا الحريق الذي جعل جبل موريا كشعلة نار سكن غضب الجنود واخذوا يتوقَّعون فتحاً اخيراً ألا وهو فتح قلعة صهيون . وكان اليهود المدافعون عنها لم يتَّعظوا بعبرة اخوتهم بل ارادوا ان يموتوا مثلهم كرماء . ودام هذا الحصار الاخير شهراً ونصف وكان اليهود مع ما نالهم من الضنك واصناف البلاء يدافعون عن قلعة داود ملكهم دفاع الاسد عن اشبالهِ وتجدَّدت هناك مساعي الرومان وبلاؤهم الحسن وفوزهم كما جرى في الهيكل حتى فتحوا عنوةً ذاك الحصن الحصين

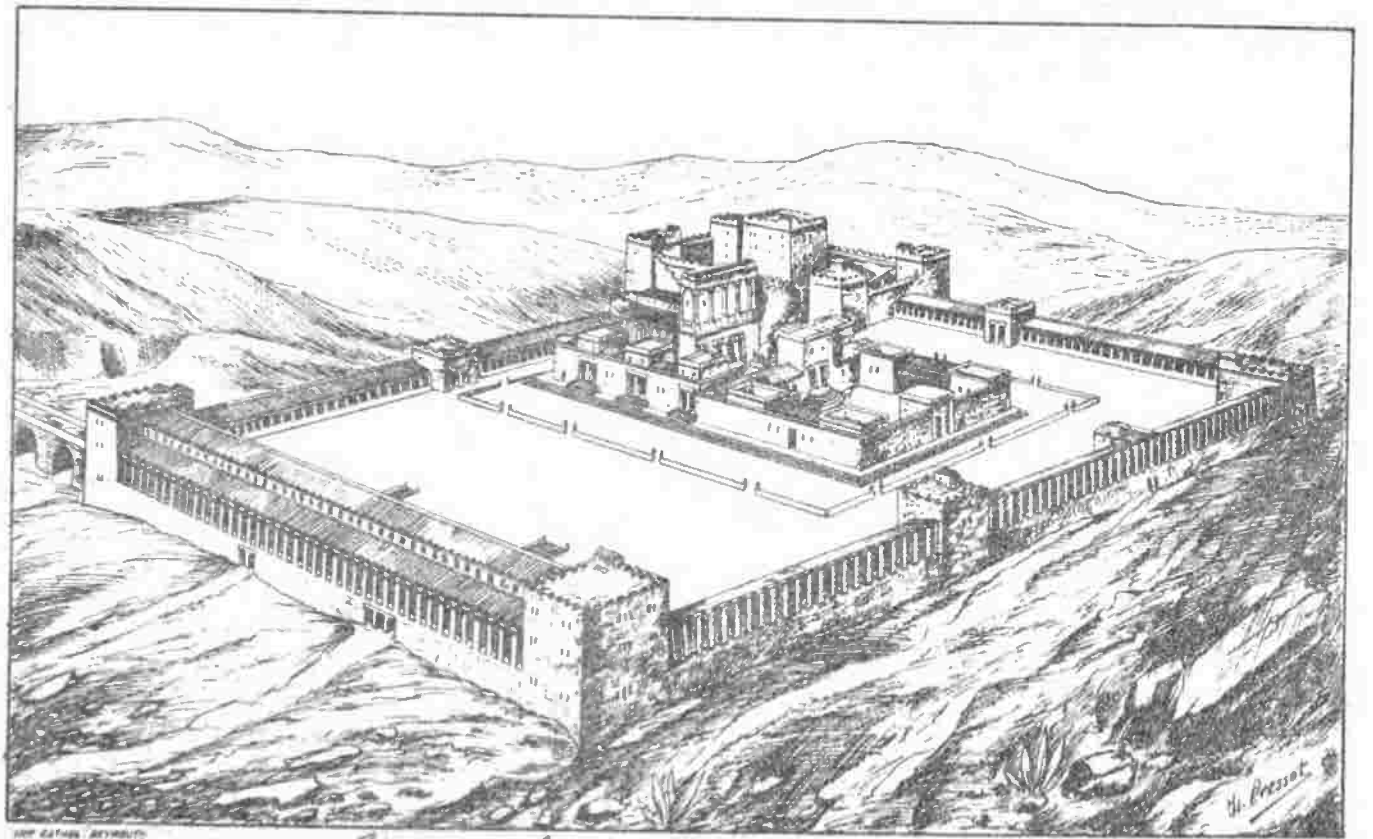

هيكل اورشليم الذي اخربهُ الرومان على عهد طيطس (نقلاً من المسيو دي فوكويه)

وجعلوا اليهود لسيوفهم جزرًا ولرماحهم دريئةً . ثمَّ اعلنوا فوق تلك الردوم بطيطس قائدهم امبراطورًا في ١٥ ايلول سنة ٧٠ م . و بذلك تمَّ الفتح الاورشليمي

الفصل الثاني عشر

بارقة امل

وكانت اخبار حصار اورشليم تبلغ الى بيروت متواصلةً تَتْرى تفيد اهلها عمَّا يصيب الرومان من النصر المبين وما يلحق باليهود من المحن المتوالية جزاء لعنادهم . وكانت هذه الانباء تُنزل الويلات بالاسرائيليين المنبثّين في جهات الشام وفلسطين فكنت تراهم يسرعون الى المهاجرة لئلاَّ ينالهم شيء من غضب جنود طيطس واعداء قومهم . وكان اكثرهم يقصدون مصر لينضمُّوا الى جماعاتهم القويَّة التي هنالك

امَّا البيروتيُّون واكثرهم من اولاد الرومانيين المستعمرين فكانت هذه الاخبار تنعم قلوبهم بالفرح فيتلقَّون بفروغ الصبر كلَّ جريدة حربيَّة يرسلها القائد من بيت المقدس و يتباحثون في معانيها و يتأوَّلون لها التآويل المتعدّدة . وكان بعض قدماء الجنود الذين سكنوا قلعة اورشليم على عهد بيلاطوس وخلفائه يرسمون صورة المدينة والهيكل ويشرحون لاصدقائهم كلَّ حركات الجيش الروماني . وكان غيرهم ينيرون البيوت بالمشاعل ليلًا اشارةً الى فرحهم امَّا الاتقياء من الشعب فكانوا يكثرون من زيارة المعابد ليشكروا الالهة وبالاخص المشتري والمريخ اله الحرب على انتصار العساكر الرومانيَّة

وفي بعض أيام الخريف كان اهل بيروت قد اجتمعوا في ملعب اغريبا ليحضروا الالعاب التي اقامها المجلس البلدي . وكان احد وجوه بيروت اسمهُ سترو بيلوس من اهل الثروة دفع نحو مئة الف درهم ليحظى عند العامَّة واستجلب على نفقتهِ قومًا من المصارعين فتصارعت مئة منهم مع وحوش ضارية كانوا اصطادوها في بادية الشام بينها نمورة وذئاب واسدٌ عظيم الجثَّة . فطرب الشعب لهذا المنظر الوحشيّ مع انَّ اثنين من المصارعين ذهبا فريسة الضواري . ثمَّ عقب هذه المصارعة صراعٌ آخر اشدّ تأثيرًا اذ نزل الميدان غيرهم من المصارعين فتجالدوا بالسيوف وتضاربوا بالرماح ولم يكفُّوا حتى وقع منهم سبعةٌ في ساحة الميدان مطعونين بالحراب

وهذه الالعاب البربريَّة كان يحضرها الاهلون ويسرُّون بها دون شفقة على المصارعين كأنَّهم ليسوا من بني جلدتهم . وكان سترو بيلوس تأنَّق في ذلك اليوم في

انواع الالعاب واكثر من المناظر الفاجعة. فمن جملة ما سعى به انهُ امر جوقة من المشخصين ان يمثلوا رواية فكاهيَّة الشاعر بلوتوس الروماني. وفي بعض محاضر هذه الرواية يُرى عبد مصلوب يفترسهُ دبٌ. فاراد ستروبيلوس ان يكون هذا المشهد حقيقيًا لا في الصورة فقط فاشترى عبدًا من احد النخَّاسين واصطاد دبًا من دببة لبنان جوَّعهُ مدَّة ثلاثة ايام ليطلقهُ وقت الرواية على العبد بعد صلبهِ وتسميرهِ بالمسامير

وكان الشعب يحضر تفاصيل هذه الرواية وكلُّهُ عيون وهو ينتظر بفروغ الصبر ظهور الدبّ اذ تقدَّم بغتةً في وسط الملعب ساعٍ واعلن للحضور بصوتٍ جهور « انَّ اورشليم صارت في قبضة الرومانيين وان هيكلها العظيم ذهب فريسة النار »

فما طرق هذا الخبر مسامع القوم حتى نسوا الألعاب واطلقوا العنان لفرحهم فكان بعضهم يصرخون وبعضهم ينشدون الاغاني الحماسيَّة. وكانت النساء تلتمع بمناديلهنَّ او يتهلَّلنَ باصوات الطرب والبعض منهنَّ كنَّ يقطعنَ اسوارهنَّ او قلائدهنَّ فيرمينها للبشير

وكان اليهود في تلك الاثناء قد بلغ الخوف منهم كلَّ مبلغ فاسرعوا الى اسراب بيوتهم وتحصَّنوا فيها. ومنهم من كان توارى تحت بواليع المدينة او في المداخن ينتظرون من دقيقة الى أُخرى منتهى اجلهم. ولمَّا قضوا على ذلك ساعات عديدة واحسُّوا بان الخطر الذي يتهدَّدهم قد زال اساغوا ريقهم وسكن جأشهم

الَّا انَّ الخبر المشؤوم بسقوط مدينة قدسهم اثَّر فيهم فوق الخطر الذي نجوا منهُ. فكنت تراهم يبكون البكاء المرّ ويردّدون اقوال ارميا النبيّ ومراثيهُ على اورشليم بعد ان احرقها نبوكدنصَّر بالنار. وكانوا يتمنَّون لو أُتيح لهم ان يموتوا مع اخوانهم تحت ردوم الهيكل. فتُرى ماذا تفيدهم الحياة اذ لم يبقَ لهم عاصمة ولا ملك ولا ذبيحة او ليس الموت الاحمر احلى من العيشة بعد ان خابت آمالهم واهملهم ربّ اسرائيل وسلَّمهم الى اعدائهم

تلك كانت الهواجس التي تخالج عقول اليهود وتكاد ترميهم في اليأس والقنوط. امَّا صاحبة دار الورود يهوديت فانَّ خبر سقوط اورشليم مع ما سبَّب لها من الحزن لم يذهلها اذ كانت قرأت في الانجيل منذ يوم اطَّلعت على كتب النصارى ما قالهُ المسيح عن تلك المدينة الاثيمة وكيف بكى عليها وتنبَّأ بما سيحلُّ بها وبهيكلها حيث لا

يبقى منهُ حجر على حجر . فكانت اقوال الانجيل كرهم لوجعها بل زادتها ايمانًا اذ رأت كيف انها صدقت بالحرف

ولكن ان كانت يهوديت قد وجدت في ايمانها الجديد تعزيةً عن مصائب شعبها و بلايا اورشليم المدينة المقدَّسة كان لها حزن آخر اخمدهُ مدَّةَ فرح المعموديَّة . الَّا انَّهُ عاد ثانيةً واستولى على قلبها وامضّ عيشتها . نريد امر والدها فانَّ تنصُّر يهوديت زاد في حبّها لعلَّة وجودها فكانت تودّ ان ترى اباها ليس فقط ليكون سندًا لحياتها بل ايضًا ليحظى مثلها بانوار الدين القويم

وكانت الاخبار السيئة التي تأتيها مرَّة بعد أُخرى من المدينة المقدَّسة تزيدها قلقًا وخوفًا على حياة ابيها الثمينة وتُقِضّ مضجعها وتكحل عينيها بالسهاد . الَّا انها لم تقطع الامل بالله . فكانت تعلّل نفسها بالاماني . . . فيظهر لها تارةً انّ اباها فرّ في جملة من نجوا من اهوال الحرب وعدد القتلى فلحقوا بالديار المصريَّة . وتارةً انهُ وقع سالمًا في يد الرومان فصار في جملة سبيهم ولعلَّهُ يفدي نفسهُ بمبلغ من المال . فكانت هذه الافكار تشغل قلب يهوديت ليلًا مع نهار وهي مع ذلك تستحثُّ بالصلاة الى الربّ القدير وتطلب من المسيح ان لا يخيب آمالها و يردّ صلاتها

فبقيت الفتاة على هذه الحالة أيامًا يتنازعها عاملا الخوف والرجاء . وهي لا تجد راحةً لقلبها و يزيد حزنها على قدر انقطاع الاخبار عن ابيها حتى عيل آخرًا صبرها فلم تُطق البقاء على هذه الحالة فاستدعت وكيلها سلوانس وامرتهُ بان يطلب لها جوازًا من حاكم بيروت ويعدّ لها محفَّة تركبها فتذهب واياهُ الى ملاقاة عسكر الرومان المظفَّرين لتبحث عن والدها او تخلّصهُ من رقّ العبوديَّة ان كان في ايدي طيطس

على انَّ دورتيا أمتها توسَّلت اليها بأَلَّا تباشر هذا السَّفَر الشاقّ مع ما هي عليهِ من نحافة الجسم وانتهاك القوى بعد ما قاستهُ من الاوجاع منذ خمسة اشهر . فلا غرو انَّها تسقط في طريقها فتخور قواها وتخاطر بحياتها

فانصتت يهوديت الى قول أمتها لكنَّها تقدَّمت الى سلوانس بان يسافر على جناح السرعة فيتحرَّى الاخبار و يتحقَّق ما جرى لابيها فاذا كان حيًّا لا يدَّخر وسعًا في نجاتهِ حتى انهُ اذا لزم الامر يدخل على طيطس نفسهِ و يطلب منهُ خلاص اسيرهِ

فقام العبد الامين من ساعتهِ واصلًا سيرهُ بسراهُ وهو يفكّر في طريقهِ ما يصنع في

سبيل نجاة سيّدهِ وارضاء سيدتهِ . فوصل الى قيساريّة بعد يومين

فحاول ان يدخل في معسكر الرومان الّا انّ الحرس لم يسمحوا لاحد ان يقارب الجند او يختلط بالاسرى الذين كانوا مربوطين في ساحة كبيرة كالغنم المهيّأ للذبح . وكان عددهم الوفاً مؤلفة بين نساء وصبيان وكهول وشيوخ

فعرف سلوانس انّهُ لا يقدر ان يجتمع بالاسرى فيستعلم عن امر صموئيل سيّدهِ لكنهُ أُخبر انّ في غدٍ تقام سوقٌ لبعضهم فمن شاء ان يشتري منهم احدًا دفع ثمنهُ

فخفق قلب سلوانس لهذا الخبر ولاحت لهُ بارقة أمل لعلّهُ يتوصّل الى فكّ اغلال سيّده . فقضى ليلتهُ كأنهُ قد افترش القتاد ولمّا كان الصباح تسارع الى الساحة المعدّة لبيع الرقيق فوجد المكان خلوًا ليس فيهِ احد فانتظر بفروغ الصبر الأجل الموعود . فما مرّ عليهِ ساعة حتى جاءت فرقة من الجند ونصبوا هناك خياماً على شكل العريش يستظلّ تحتها الباعة من اشعّة الشمس

ولمّا اتت الساعة رأى سلوانس قوماً من التجّار و بايديهم اكياس الفضّة قصدوا المكان وعلى وجوههم تلوح ملامح الطمع بالربح . ثمّ نظر الجند يقدمون بالاسرى مكبّلين اثنين اثنين وهم يرسفون بقيودهم . فلمّا مرُّوا امامه جعل يحدجهم بالنظر لعلّهُ يرى صموئيل سيّده المنكود الحظّ . فكان الاسرى يتوالون متتابعين وهم على اسوإ حالهم وجوههم مصفرّة وعيونهم غائرة يمشون حيارى سكارى لا يكادون يَعُون لنفوسهم لكثرة ما اصابهم من الاذى والاوجاع

ولكن خاب امل سلوانس فانّ هؤلاء الاسرى كانوا كلّهم من الشبّان لا يتجاوز عمر الاسنّ بينهم ثلاثين سنةً . فخامرهُ الحزن وتولّاهُ الكآب اذ لم يرَ سيّدهُ . فترى كيف يعود الى بيروت وهو صفر اليدين . أفما تموت يهوديت كدرًا من هذا الخبر

ثم افتكر سلوانس في نفسهِ قائلًا : لعلّ عيوني خدعتني وانّ صموئيل كان من المأسورين لكنّني لم اعرفهُ لما نالهُ من سُهام اللون وكثرة الاوجاع التي تكون اضنكت قواهُ فغيّرت هيئتهُ . وعليهِ اتبع الاسرى واجلس بين التجّار لأرى الاسرى واحدًا واحدًا

فجعل الجند يأخذون الاسير ويجرّدونهُ من ثيابهِ و يعرضونهُ على مصطبةٍ هناك فيقوم التجّار و يجسّون اعضاءهُ و يفحصون كلّ عضلات جسمهِ كما يفعلون بالحيوان ثمّ يثمّنهُ المثمّن ثمّ يساومهُ التجّار و يبيّنون نقائصهُ : هذا ضعيف البنية . . . وذاك مصاب

بداء دفين . . . حتى يتّفق البائع والمشتري على ثمن هذه السلعة البشريّة فيدفع المشتري حقّها ويجعلها ملكه يتصرّف فيها كيفما يشاء حتى يجوز لهُ قتل عبدهِ دون ان يسائلهُ احد عن فعلهِ

وقد شاهد سلوانس في هذا المعرض ما يفتّت الاكباد ويلين لهُ الجلمود فكان يرى الوالد مفصولًا من ولدهِ والامّ من ابنها وكلّهم يذرفون الدموع السخينة وليس من يرثي لحالهم . ورأى اخوين عمر الاكبر منهما عشرون سنة والاصغر اثنتا عشرة سنة فتقدّم احد تجّار صور فساوم الاكبر بثمانمئة درهم امّا الاصغر فلم يرضَ بهِ لصغر سنّهِ . ولمّا اراد ان يفصل بينهما القى الصغير نفسهُ بين ذراعي اخيهِ يناشدهُ الله بالّا يفصلهما ثمّ علا بكاؤهما وتصاعدت زفراتهما دون ان يرقّ لهما قلب المشتري فضرب الصغير ليأخذ مالهُ ويذهب بهِ الّا ان سلوانس لم يتمالك عند هذا المشهد فتقدّم وصرخ : انا آخذ الزوج بالف وخمسمائة درهم . فأنفذ المثمّن البيع لسلوانس وخلّص الاخوين من ايدي التاجر اللئيم ليجعلهما في خدمة سيّدتهِ يهوديت

ولمّا انتهى بيع العبيد ولم يجد سلوانس ضالّتهُ اخذ ينشدها في محلّ آخر . وفيما هو سائر رأى اعلانًا كان يحملهُ احد المارّة وينادي بهِ في الازقّة . وكان مُفاد الاعلان « انّ في غد ذلك النهار تقام ألعاب يتصارع فيها بعض اسرى اليهود او يُلقَون للوحوش

(ستأتي البقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

ارشاد الالبّاء الى طريق تعليم الف باء

للعلّامة المحقّق الشيخ طاهر الجزائري

طُبع في بيروت سنة ١٣٢١ ص ١٤٤

لا يزال جناب الشيخ العالم العامل طاهر افندي الجزائري يُغني العلوم الشرقيّة بتآليف حسنة ينهج فيها مناهج جديدة كان قرّرها سابقًا أئمّة اللغة العربيّة وواضعو